البعد الاجتماعي في الأدب الإسلامي

سعاد عبد الله الناصر
(أم سلمى)

الحديث عن البعد الاجتماعي في الأدب الإسلامي، يستوجب الإشارة إلى محورين يشكلان المركز الأساس لهذا البحث:

أولاً : الخلفية الشرعية لعلاقة الأديب المسلم بفئات المجتمع.

ثانياً: المقاربة التطبيقية لبعض النماذج من الأدب الإسلامي.

يقول رسول الله ﷺ : «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم» هذا الحديث موجه لعامة المسلمين، فكل فرد منهم مسؤول مسؤولية كاملة شرعاً انطلاقاً من هذا الحديث بالاهتمام بشؤون المسلمين وإلا فلا يمكن اعتباره منهم إطلاقاً بنص الحديث النبوي. هذا بالنسبة للمسلم بصفة عامة. أما بالنسبة للأديب فتكون مسؤوليته مضاعفة؛ لأن لديه وسيلة فعّالة تؤثر في ضمير المجتمع وتجعل منه المتكلم بلسانه، المعبر عن أحواله. ولهذا، فالعلاقة التي تربط بين الأديب المسلم وبين مجتمعه علاقة شرعية يدعوه إلى ربطها دينه، وتجعل منه صاحب موقف ومسؤولية يؤدي رسالته على الوجه المطلوب منه؛ لأنه سيحاسب على كتاباته، وسوف يُسأل لماذا وفيم كتب وإلى أية غاية كان يهدف.

فكيف هو هذا المجتمع الذي يصبح الأديب مسؤولا عنه شرعاً وملتزماً ـ انطلاقاً من رؤيته الإسلامية ـ بقضاياه ؟؟.

إن أي مجتمع يتكون من فئات مختلفة من البشر الذين تتفاوت مستوياتهم المادية وأشواقهم الروحية، وبالنسبة للمجتمعات (الإسلامية) فقد نقضت «مطالب عقيدتها والتزاماتها الاجتماعية عروة عروة وتآمر عليها المتآمرون».

يقول رسول الله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً» وفي هذه المجتمعات، حين بدأ البنيان يتحلل، تضللته الفجوات التي تسربت منها الأمراض والجراثيم والعلل على مختلف أنواعها وألوانها... وهذا واقع لا مجال لنكرانه أو الهروب من مواجهته مادام الأديب المسلم يحمل المسؤولية الشرعية تجاهه، وهو واقع ملموس وبارز بشدة، وزاخر بشتى التناقضات التي تصطرع داخله، وملئ بالتشوهات التي أنهكت أعماقه وأطرافه، وتطفو على السطح عدة تساؤلات حائرة نابعة من هذه الصراعات التي تقتضي الغوص داخل مختلف الشرائح والفئات الاجتماعية، والتسلح برؤية متفردة تمحي جميع الفروقات الطبقية المزيفة التي تعزل فئة من المجتمع عن أخرى، وتخفف من حدة الحقد الأسود الذي يعمل المغرضون على غرسه في النفوس انطلاقاً من قولة النبي ﷺ السابقة «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً» كيفما كان هذا المؤمن وكيفما كانت حالته الاجتماعية ومستواه المادي «فإنما المؤمنون إخوة» ولن تتحقق الأخوة الصادقة إلا بالعمل المشترك في سبيل المصلحة العامة المشتركة بين جميع المسلمين. كما أن هذه الرؤية المتفردة تبين الألوان المتعددة للقوى المضادة التي تحاول الصعود على أكتاف المستضعفين بعد أن تسحقهم، كما تعمل على فضح

مختلف «الايديولوجيات» الزائفة والمتناقضة التي تجعل من الثلاثي المقدس عندها: الخبز ـ المسكن ـ الجنس ـــ مطمح آمالها ومنتهى أحلامها ـ هذا في الحقيقة ما يطمح إليه الأدب الاسلامي في بعده الاجتماعي، فيحلل ويجيب ويدعو إلى رسم معالم المجتمع يسوده التنظيم وفق ناموس عال متميز. يقول د. عماد الدين خليل: «والدعوة إلى رسم معالم صورة المجتمع الإسلامي لا تعني الحجر على سلوك الناس وضبطهم في قوالب مسبقه، وإنما هي دعوة لتوضيح الأبعاد التي يتيحها الإسلام لحركة الإنسان داخل العالم وداخل المجتمع».

هموم المجتمع

وهذه الدعوة تخطو بالأديب المسلم نحو التغيير؛ لأنه بتعبيره عن هموم المجتمع وآلامه وآماله، وفضحه لمختلف أشكال الأنحراف والرذيلة وتنفير الناس منها، يكون مؤمناً بقدرة المسلم على التغيير وعلى تغليب فطرته الصافية للتغلب على مختلف الأوضاع الفاسدة والحالات الطارئة والواقع المزيف.

وعلى ضوء هذه الشرعية والمسؤولية. هل استطاع الأديب الإسلامي المعاصر أن «يعايش واقعه ويحمل هموم مجتمعه فتؤرق نومه، وتحفز وجدانه، وتحرك فكره، وتثير الحيوية والحرارة في قلمه فيعبر عنها التعبير الفني الجميل».

وهل استطاع أن يؤكد العلاقة الفكرية والروحية بينه وبين المتلقى حتى يحدث التجاوب الذي يساهم في حفز الهمم واتخاذ المواقف وصنع التغيير ؟».

للإجابة على هذه التساؤلات لابد من المقاربة التطبيقية لبعض النماذج من الأدب الإسلامي.

ولا بد من الإشارة في هذا المجال إلى أن عملية اختيار النصوص الإبداعية لم تكن وفق شروط معينة. ولكنها أتت عفوية وإلا فهناك نماذج لا حصر لها تدخل في هذا البعد الاجتماعي.

النص الأول من قصيدة: ملحمة رجال القرية المستضعفين للشاعر الأستاذ عبد الرحمن عبدالوافي:

يستهل الشاعر هذا النص بـ «بلادُنا بخير» ونتوقع أن يستعرض الشاعر هذا الخير الذي تكلم عليه. لكنه ينادي «يا» والمنادى المجهول لفظاً سيصبح معلوما عندنا حين نتوغل في النص. إنه يخاطب المستضعفين بالسؤال: «هل أتاك في زماننا هذا حديث الملأ الذين أترفوا فهم يبنون من دموعنا بكل ربع آية/ وينحتون من عظامنا بيوتا فارهين؟؟».

هذا هو الخير العميم. والمترفون يستغلون الكادحين، ثم يقول الشاعر:

«يا.. هل رأيت مال الله كيف يهلكونه على فنادق اللذات، والأعراس، أجواد ألف ليلة وليلة، قارون فيها من حمية الزهو طاف صائحاً: لأهلكنَّ مالاً لُبَداً».

والجاريات يستملن الحاضرين».

في التساؤل الأول عمم الشاعر استغلال المترفين. وفي التساؤل الثاني يخصص بعض مجالات الاستغلال، وكيف يهلكون مال الله الذي هو ملك للناس أجمعين، وليس دولة بين الأغنياء منهم، يهلكون لإشباع نهم لذاتهم. فيعطي مثالا بالأعراس التي يقيمها هؤلاء. وكيف ينفقون فيها أموال الله بطريقة خرافية في وقت فيه مئات الفقراء الذين لو أنفق عليهم نصف ذلك المال لكفاهم ذل الحاجة. ولا يفوتنا أن نشير إلى الدلالة العميقة لفعل «يهلكونه» فعملية الهلاك هنا تساوي الفناء والعدم وعدم الانتفاع.

ثم بعد هذا يستعرض بعض الصور الحاضرة في تلك الأعراس: فالجاريات يستملن الحاضرين بتهتكهن وانغماسهن في الميوعة والرذيلة حتى ينقض عليهم الحاضرون كالعقبان والشهوة تجرف الجميع نحو الخراب، ولكلمة «الجاريات» إيحاء بالعبودية والالتصاق بالأرض.

ويصرخ الشاعر: شهوة الخراب في العيون الجارحات والمخالب المعقوفة الحمراء آه ـ تخيفني ـ فهي في اشتهاء جارف تمتص دم الفقراء قطرة فقطرة والأرض ذرة فذرة».

وينجح الشاعر في تصوير حالة المترفين في لذاتهم وشهواتهم التي تمتص دم الفقراء قطرة فقطرة وتمتص الأرض ذرة فذرة فعملية المص مدروسة بعناية وعن سابق تصميم وتخطيط من طرفهم يقومون بها بشهوة حيوانية لا تقيم وزناً للعلاقات البشرية ولا تحسب حساباً لأي مبدأ أو قيمة.

إن هذا النص صورة من صور العلاقات الاستغلالية التي أصبحت تتحكم في المجتمع، وصورة من صور تفشي الرذيلة واختلاط الجاريات ـ وهن يقطرن بالدلال والميوعة ـ بالرجال يدعون الحضارة والتقدم. وما يتبع هذا الاختلاط من تفسخ وانحراف في العلاقات الاجتماعية. ومن استنزاف وهلك لمال الله.

وعند شاعر آخر نجد حالة اجتماعية أخرى منغمسة في الجهل والشرك وضمائر غائبة تستغل البسطاء والسذج. هذا الشاعر هو الأستاذ محمد المنتصر الريوني ففي ديوانه: عندما يزف ابن تيمة صبح الولادة «يرصد الظاهرة المتمثلة في شعوذة بعض الفرق الصوفية وضلالاتها، والمتمثلة في التعلق بالأضحية في بركتها مما نتج عنه انحراف عقدي كبير والديوان ـــ وهو يرصد هذه الظاهرة ـ (يقول الشاعر) «يطلق الصرخة الرمضاء، ويرسل الصيحة اللافحة ضد كل ممارسة جاهلية من هذا النوع أولاً، وضد كل ممارسة جاهلية غيرها ثانيا، داعيا إلى التوحيد، توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وهي قاعدة الإسلام الحقيقية». يقول في قصيدة: الصفحة الأولى من مواسم الأولياء.. وفارس التوحيد»:

ضاقت الساح بأفواج الرقيق
تقتفي ركب الحواة
ضاع منها الرشد فاربد الطريق
واحد يشكو السقام
واحد يرجو الشفاء
واحد ينشد طفلا
يتمسح، يستغيث، يستعين
يذرف الدمع خشوعا للحمام.
في انكسار
يوقد الشمعة للقبر الكريم
صاحب الرزق، واخوان الحنان
... كل شيء رهن أمره
جاهليات تشج الأفق الأخضر
في الليل البهيم
تغرز الشرك ـ العديد ـ
كرؤى الجدب الحقود
ضاقت الساح بأفواج الرقيق
بالنساء، بالرجال، أصبح
الجسم الحرام، يشتهي الجسم
الحرام
إنه عصر المواسم.. والطوائف
مهرجان الفلكلور والكراكز
عريت فيه عن الحق المكارم

وقد أفلح الشاعر في تصوير هذه الحالة بدقة بتعبيره الشعري المتميز الواضح، موظفا معجماً خاصاً توحي بدلالات متعددة تزيد في تعميق الشعور بازدراء هذا الوضع: كأفواج الرقيق ـــ صاحب الرزق ـ الجسم الحرام يشتهي الجسم الحرام ـــ كأس الهجير ـــ عصر المواسم والطوائف ـــ مهرجان الفلكلور والكراكز. وهكذا يغوص الشاعر الإسلامي في قلب المجتمع معبراً عن همومه فاضحا مستغليه مبرزا عيوبه، ملتحما فيه بكل ذاتيته المرهفة وإحساسه الرقيق تقم الكلم وصراعاته. يقول الشاعر الأستاذ محمد علي الرباوي متحدثا عن معاناة العمال المصدرين إلى الخارج للبحث عن عمل يستطيعون به مجابهة مطالب الحياة:

«سفن تتسكع في أرصفة الميناء
لفظت من فمها المجنون رجال
في لون الصحراء
رزما، رزما تركتهم في أرض
الغرب»

فهذه السفن التي تحمل العمال تلفظهم في أرض الغربة وكأنهم نفايات، فيحترقون فيها في جحيم العمل المضيء حتى إذا أنهكتهم جسميا ونفسيا أرسلتهم إلى بلادهم يقول:

أعرف أنك كنت غريبا

في أرض الروم غريباً
تلتهم الأوراش دماك الفواره
وفعل «يلتهم» يحيلنا على الحياة في الغاب، فبعد أن يُلتهم العامل وتُمتص دماؤه الفواره بالشباب يُرمى:

كل صخور الروم
وكل بحار الروم
وكل بلاد الروم تقول لك ارحل
ترحل ؟
كيف ؟
وأنت شبابك مدفون فيها

ويكرر الشاعر «كل» هنا ليؤكد على إصرار بلاد الروم على ترحيل العمال بعد إنهاكهم ودفن شبابهم ويتساءل بمرارة: ترحل ؟ كيف ؟ .. أهذه الإنسانية وحقوق الإنسان التي يتشدقون بها ؟

ويبرز الشاعر قصيدة «أغنية إلى أمي». سلسلة أخرى من المعاناة وهو يحاول أن يحقق ذاته ووجوده، مرة وهو أستاذ يعلم الطلبة ومرة وهو في السوق يصارع غابات الأسعار، ومرة أخرى في بيت مع زوجه وابنته، وفي كل مرة يعتقد أنه أصبح رجلاً وللرجولة معناها الثابت في المفهوم الإسلامي، ومع ذلك لا يتحقق هذا الوجود، ويتمزق الشاعر؛ لأنه يعيش بعيداً عن أعين أمه الممطرة التي هي كناية عن العقيدة:

«أمي
آه يا أمي، آه
حين دخلت أقاليم الغربة يا أماه
حين تمزقت
وعشت بعيداً عن عينيك
الممطرتين
كان قليلاً زادي، وبعيداً سفري
وطريقي
غطت جنباته سيقان الغيلان
وأغصان الجن المشتبكة، حينئذ
سقطت من جسدي عضلاتي
المرتبكة
سقطت من وجهي
عيناي، ومن صدري
رئتاي، ومن رأسي شعري
حينئذ أدركت بأني مازلت كما
عهدتني
عيناك - يا أمي - طفلا

ويتساءل الشاعر بعد أن يتأكد أنه لا يزال طفلاً رغم خوضه شعاب الحياة:

«هل يقدر طفل أن يحيا في
البطحاء بلا أم ؟»

وقد وفق الشاعر في تقريب صورة الإنسان التائه وسط تيارات الحياة المختلفة وصراعه كي يحقق ذاته، لكن بعده عن الطريق الصحيح جعله يتخبط في المتاهات ويعيش هائما رغم انغماسه في مختلف الأنشطة الاجتماعية. وكانت رائعة ومعبرة صورة الطفل الذي لا حول له ولا قوة وهو في البطحاء تائه بلا أم تسنده.

وينتقل بنا الشاعر في قصيدة أخرى إلى جانب اجتماعي آخر وهو يصور الإنسان الذي يخون شعبه ويظهر غير ما يبطن. يقول:

«قالوا عنه مناضل
يحمل أتعاب الشعب المتوتر
في صدره
يحلم بالفجر يرش غلائله بين
ضلوع حبيبته السمراء».

يستهل القصيدة بفعل «قالوا» ليدل على مجرد القول وشتان بين القول والفعل، وهذا الذي قالوا عنه استرعى فضول الشاعر، فهو لم يكن يعرفه، وقولهم يدل بأن مثل هذا الإنسان لا بد وأن يُعرف بالعمل الملموس:

«هذا الرجل الثائر لم أك أعرفه
عضوا عضوا
لكني بالأمس قرأت كثيراً عنه
سمعت كثيراً عنه
لهذا اليوم أفتش عنه لأقرأ في
الليل كتابه»

وفي غمرة البحث يمر على جميع الأماكن التي من المفترض أن يتواجد فيها الذي قالوا عنه مناضل، ابتداءاً من بيوت الفقراء إلى كل سجون الوطن لكن للأسف لم يجده:

«فإذا الرجل الثائر يخرج من
دائرة المجهول إلى دائرة المعلوم
الواسع، متعده يتوسط رواد المقهى
لم يك يقرأ كتب الثورة والعشق
عليهم، لم يك يعطيهم درسا في
حمل السيف وحمل الرشاش،
وحمل المدفع، كان ينادم قنينة خمر
مع بعض الزبناء، لهذا جحظت
عيناي، تحولتا إلى نصلين انغرسا
في صدره».

وهكذا تنهار اسطورة المناضل المنافق الذي لا هم له إلا الانغماس في الذات، والقول الزائف.

وكثيرة هي النصوص الشعرية التي يغوص الشاعر من خلالها في قضايا مجتمعه ويحترق بلهيب معاناته وآلامه. ويذوب في عشقه النبيل لتغيير واقعه المزيف والسعي بالدم والدمع والكتابة لإحلال العدل والمحبة. ونقف عند قصيدة «الحلم والأسوار» لتوحد مع الشاعر في عشقه. يقول الأستاذ الشاعر حسن الأمراني يخاطب العاشق المجاهد:

«شردتك البلاد الحبيبة
واحتضنتك المنافي
أيها العاشق المتغرب في الذات
أو في البلاد العريضة
قد شردتك الحروفْ
وأسلمك الأهل لليل
غربكَ العشقُ واحتضنتك
السجون»

وهكذا يعيش متشرداً متغرباً من أجل الدفاع عن الجماهير ومن أجل توعية الضعفاء لكنهم يحاولون إبعاده زاعمين أنه يوقظ الفتنة يقول:

حملوك لبلاً كما زعموا توقظ
الفتنة النائمة
هكذا أيها المدجج بالحق.
تصبح أرض المساكين مزرعةً
للمرابين والكبراء
ويصبح يا صاحبي العهرُ من زينة
الأرض
والقهر من سنّةِ الحاكمين

لكن حين يغيبون في غياهب السجن لم يكونوا يمنحونه سوى الإصرار على الطريق:

«حين أسلمك المرجفون إلى
غيهب السجن
ما علموا أنهم منحوك طريقاً إلى
الفجرِ»

ورغم المآسي المتعددة ورغم البعد عن طريق الله فقد آن للصبح أن يستيقظ، يقول الشاعر حسن الأواني في قصيدة أخرى:

«قرّر التاريخ أن يرحل عن غفوته
قرّر التاريخ أن ينهض من كبوته
هو ذا يعبر وجه النهر حتى
الضفة الأخرى خفيفاً كالشعاع
هو ذا يزحف نحو الفجر من غير
شراع»

فرغم كل عمليات الهدم فالفجر على الأبواب يقول:

يا هذا الولد الأفاق
طوقتك حين بثت عيوني
حاصرتك بالجنس ومبتكرات
التخدير
كل تقاريري تخبرني
أنك لم تقرأ منشوراً سرياً
لم تتمرس أسلوب الحقد الطبقي
ولم تقرأ كلمات لينين
سأنحت وبارحت فطمأنني
الجفر
فمن علمك التحديق بوجه
الشمس ؟
ومن علمك التحليق إلى الآفاق؟

ويرد الشاعر:

«أنا لم أقرأ بيانا في النضال
لم أطالع كتب الثورة
لم أعرف كتاب (الرأسمال)
غير أني تصفحت طويلاً
كتب الفقر ومنشور السنين
وتدبرت كثيراً
سورة (الصف) وآيات الجهاد
فتعلمت كثيراً
وتشوقت كثيراً
وتحرفت كثيراً»

ورغم محاولات الاغتراب والعمل على البعد عن الجذور والفطرة السليمة، فنحن هنا نتصدى لكل محاولات التزييف بين أيدينا كتاب الله يهدينا السبيل.

رسائل إلى بيجوفيتش

د. حسين علي محمد

١ ـ كَرْب:

مرَّت أفراسُ الصَّربِ/ الكُرْواتِ

وكنتَ تُرَوِّض أمواج الدهشةِ

في دفتر كربٍ يتجدَّدْ

لم ألحظْ حُزْنَك

مرَّت أرتال الصَّرْب/ الكرواتِ سراعًا

فوق تفاعيلك

لم أتنبَّهْ للحيْرةِ

كانتْ أحزاني تسألني

عن رُعْب اللحظةِ

وعلوج الصِّربِ/ الكرواتِ تُهدِّدْ:

لا تنزِف أنشودتك الأولىٰ يا بيجوفيتش

في جند محمد . . .

صوتُك يُرْعِدْ:

من يطْلُبْ منّي أن أقْبر شوقي

بين وريقات خريفي . . .

في هذا الطقس الأسودْ؟

٢ ـ أغنيتان إلى سراييفو.. وبيجوفيتش:

من أبْصَرَ الوردَ يَمْضي

إلى ضفافِ العناكبْ

فيُزْهرُ الجُرْحُ حزنًا

على مُروجِ الخرائبْ

ويُحْمَلُ الفجرُ غدرًا

إلى ظلالِ الغياهبْ

وتَدْهشُ الأرضُ حينًا

لما جناهُ الثعالبْ

كم ذا تُغنِّي وحيدًا

ولا تخافُ العواقبْ؟

٣ ـ أمطار سوداء:

المطرُ الليليُّ الأسودُ.. يتدفَّقْ

يعزفُ معزوفتهُ الهوجاءْ

يحملُ جثَّةَ شجر الحكمةْ

يـصرخُ في ألحـاني
بفيوضٍ من ضوضاءْ
ويفـاجئُنـي . .
إذ يُستقطُني . .
لغةً ينخرُ فيها الداءْ
قبل بزوغ صباحك . . يا خضراءْ!

٤ ـ برقية إلى بيجوفيتش:

كيف الحالْ؟
مازلتَ تعيشُ كما تحيا السمكةْ في القفْر
مازلتَ تغنّي . .
لكنْ . . يهرُبُ منك الشعر!
مازلت تمارسُ ملحمة صمودِك
لا تعبأ بالخوفِ . . الموتِ . . القَهرْ!
مازلت تقاومْ، وتغنّي للحبّْ
مازال يروعُك صوتُ الباطل في ليل القرّ:
فاوِضْ واقبلْ ما يمنحُهُ الغرْب . .
. . . !
مازلت تُقاومُ كالنَّسْرِ خنازيرَ الصَّرْب!
. . .
كيف الحالْ؟
مازلتَ تعيشُ، وتحلُمْ كالأطفالْ
مازلت تُدحرجُ طاولَةَ الحُلْمِ
وتسْمَعُ : قيلَ وقَالْ!
مازلت تُشاهِدُ تلك الأعمالْ . . . . . !
مازلتَ تُطاردُ شرنقةَ الموْتِ
وتفرطُها فجرًا أخْضَرَ . .
في عَبَق الموّالْ!

٥ ـ في انتظار خيول «محمد الفاتح»:

لازالتْ تركضُ خيْلُ الإسراءِ عشيًّا
في لغةٍ آسرةٍ، تُفصِحُ عنْ فتنتِها
في قيثارتِها «الفتحُ»،
على صهوتِها «القعقَاعُ»
وتحت سنابِلَها «القُلَّيْسُ»، «مَناةُ»
وفي دفترك بقايا عشقٍ
لم يطمسْ غازٍ في الليلِ الدامسِ
نبضَ هويَّتِها
وبِحارٌ لم يفجأها قُرْصانٌ
وجِراحُ الغَيْمِ
وبعضُ جذورٍ . . .
أطفالٌ خُضْرٌ يتلون «براءةَ» و«الفتحَ»
ولم يستأنسْ نبضَهُم
إغضاءُ الخوفِ
أو الإملاقُ الكاسرُ
أو شِعْرٌ يكشفُ عن هجنته
أوْ أحرفُ عارٍ تكشفُ عن سقطتِها!
. . . . . .
تتورَّمُ في الأفْقِ فصولُ العَار
وتَفْغَرُ أفواهُ الدهشةِ عن خيْبتِها
والقافلةُ عشيًّا
أسْكَرَها المنكرُ . .
سقَطَتْ في وهدةِ خيْبتِها . . !
أنت الحادي الصادقُ
فاصرُخْ في جند محمد
نادِ المجدَ المُدْبِرَ
أيقظْهُ مساءً
أو قبْلَ أذان الفجرِ
(أتقْدِرُ؟)
تلك كباشُ الصَّرْبِ/ الكُرواتِ تحوطُكَ
تغتصبُ عفيفاتِكَ . .
تُشعِلُ جذوةَ عارٍ
يكشف عن كبْوتِها
وبقايا أُمَّتِك، تغطُّ أنينا
في نوْمتِها
أيقظْها يا صوتَ مُحَمَّدْ
أشعِلْ جمرةَ شوقِكْ
في سقطتِها

استقامة الإمام أحمد بن حنبل[1] وكرمه

لابن حبان البستي[2]

حكى ابن حبان البستي عن إسحاق بن أحمد القطان البغدادي بتستر.

قال: كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء. كان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم. فقال لي: دخلت يومًا على أحمد بن حنبل فاذا هو مغموم مكروب، فقلت: ما لك يا أبا عبد الله؟ قال: خير! قلت: ومع الخير؟ قال: امتحنت بتلك المحنة حتى ضربت ثم عالجوني وبرأت، إلاّ أنه بقي في صلبي موضع يوجعني، هو أشد عليّ من ذلك الضرب، قال: قلت اكشف لي عن صلبك، فكشف لي فلم أرَ فيه الاّ أثر الضرب فقط، فقلت: ليس لي بذي معرفة، ولكن سأستخبر عن هذا، قال: فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس، وكان بيني وبينه فضل معرفة، فقلت له: أدخل الحبس في حاجة، قال: أدخل، فدخلت وجمعت فتيانهم. وكان معي دريهمات فرقتها عليهم، وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بي. ثم قلت: من منكم ضرب أكثر؟. قال: فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضربًا وأشدهم صبرًا، قال: فقلت له: أسألك عن شيء، قال: هات. فقلت: شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم، وضرب على الجوع للقتل سياطًا يسيرة. الاّ أنه لم يمت، وعالجوه وبرأ، الاّ أن موضعًا في صلبه يوجعه وجعًا ليس له عليه صبر. قال: فضحك، فقلت: مالك؟، قال الذي عالجه كان حائكًا، قلت: أيش الخبر؟، قال: ترك في صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها، قلت: فما الحيلة؟ قال: يبطّ(٣) صلبه وتؤخذ تلك القطعة ويرمى بها. وإن تركت بلغت إلى فؤاده فقتلته قال: فخرجت من الحبس فدخلت على أحمد بن حنبل فوجدته على حالته، فقصصت عليه القصة، قال: ومن يبطه؟، قلت أنا، قال: أو تفعل؟، قلت: نعم، قال فقام ودخل البيت ثم خرج وبيده مخدّتان وعلى كتفه فوطة(٤)، فوضع إحداهما لي والأخرى له، ثم قعد عليها وقال: استخر الله فكشفت الفوطة عن صلبه وقلت: أرني موضع الوجع، قال: ضع أصبعك عليه فاني أخبرك به، فوضعت أصبعي وقلت: ههنا موضع الوجع؟ قال: ههنا أحمد الله على العافية، فقلت، ههنا؟ قال، ههنا أحمد الله على العافية، فقلت ههنا؟ قال ههنا أسأل الله العافية، قال فعلمت انه موضع الوجع قال: فوضعت المبضع(٥) عليه فلما أحس بحرارة المبضع وضع يده على رأسه وجعل يقول: اللهم اغفر للمعتصم، حتى بططته، فأخذت القطعة الميتة ورميت بها وشددت العصابة(٦) عليه، وهو لا يزيد على قوله: اللهم اغفر للمعتصم، قال: ثم هدأ وسكن ثم قال: كأني كنت معلقًا فأحدرت، قلت، يا أبا عبد الله إن الناس إذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم ورأيتك تدعو للمعتصم، قال إني فكرت فيما تقول، وهو ابن عم رسول الله ﷺ، فكرهت أن آتي يوم القيامة وبيني وبين أحد من قرابته خصومة، وهو منّي في حلّ.

وكان آية من آيات الله في الزهد والقناعة والتوكل، والورع، والتواضع، والعزوف عن أموال السلطان، ومكارم الأخلاق، امتحن في الله، وفي الدفاع عن السنة والعقيدة الصحيحة في فتنة الاعتزال أيام المعتصم، وعذب عذابا لم يعذّبه إلا أفراد قلائل، فصبر صبر الأبطال، وثبت ثبات الجبال، ثم امتحن بالصلات والعطايا، والإجلال والتكريم أيام المتوكل، فاستقام استقامة الربّانيين، والمتوكلين الزاهدين، وانتصر للسنة، وذاد عن الإسلام، حتى قال علي بن المديني أحد أئمة الحديث في عصره: «إن الله أعز هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردّة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة» وقال قتيبة: «إذا رأيت الرجل يحبّ أحمد ابن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة».

كانت وفاته سنة ٢٤١ هـ، وصلّى عليه جمع كثير، قال عبد الوهاب الوثّاق: ما بلغنا أن جمعًا في الجاهلية والإسلام مثله، ومن مؤلفاته الشهيرة مسنده.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال، الإمام أبو عبد الله الشيباني الذهلي، إمام المسلمين ومَنْ حبُّه والدفاع عنه من شعار أهل الدين. ولد في بغداد في ربيع الأول سنة ١٦٤ هـ. ونشأ على الصبر والقناعة. وحفظ القرآن في صباه. واتجه إلى الحديث اتجاها كليًا. ورحل إلى بلاد كثيرة، والتقى في رحلته إلى الحجاز مع الإمام الشافعي، وأخذ عنه الفقه وأصوله، ولقيه بعد ذلك ببغداد، وعلا شأنه في الحديث وعلم الرواية، حتى بلغ مبلغ الإمامة، ورتبة الاجتهاد، فكان يحفظ ألف ألف حديث، وجلس للتدريس والفتيا، وكان إقبال الناس على مجالسه عظيمًا، وتخرج عليه كبار الأئمة مثل الإمام البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبي داود.

(٢) هو أبو حاتم محمد بن حبان البستي، وهو عربي الأصل، نشأ في بست ـ مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ـ وكان مكثرًا من الحديث عن الرحلة والشيوخ، كتب عن ألف شيخ، ولي القضاء بسمرقند، ثم بنسا، قتله الخليفة بتهمة اتهم بها وهو في الثمانين من عمره، وقيل مات حتف أنفه سنة ٣٥٤ هـ. وكان عالمًا بالمتون والأسانيد، وكان وعاء من أوعية العلم في اللغة والفقه، والحديث والوعظ، عارفًا بالطب والنجوم والكلام، طبع من كتبه «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» وهذا الفصل مأخوذ منه. والقصة تدل على استقامة الإمام أحمد بن حنبل وصبره، وكرم خلقه، وحبه لرسول الله ﷺ وقرابته. وهي أنموذج طريف للغة العربية الفصحى، والتعبير البليغ الذي كان منتشرًا في القرن الثالث الهجري في بغداد قبل أن يفسده التكلف والعجمة.

(٣) بط يبط بطًا، الجرح شقه.

(٤) الفوطة، ما يأتزر به الخدم ج فوط، وعند العامة: هي طعمة تنشف بها الأيدي، وتسمى أيضا المنشفة.

(٥) المبضع: ج مباضع، وهو آلة يشق بها الجلد، وما شاكله.

(٦) العصابة: ما عصب به من منديل ونحوه، ج عصائب.

عابد ليل

لابن الرومي

باتَ يدعو الواحد الصمدا ... في ظلام الليل منفردا

خادم لم تُبْقِ خدمتُه ... منه لا رُوحا ولا جَسدا

قد جفتْ عيناه غمْضَهما ... والخليُّ القلب قد رقدا

في حشاه من مخافته ... حُرُقاتٌ تلْذع الكبِدا

لو تراه وهو منتصبٌ ... مُشْعِرٌ أجفانَه السُّهُدا

كلما مَرَّ الوعيدُ به ... سح دمعُ العين فاطَّردا

ووهت أركانه جزعًا ... وارتقت أنفاسه صُعُدا

قائلٌ: يا منتهى أملي ... نجِّني مما أخاف غدا

أنا عبدٌ غرني أملي ... وكأنَّ الموتَ قد وردا

وخطيئاتي التي سلفتْ ... لستُ أحصي بعضَها عددا

فلَى الويل الطويل غدا ... ليت عمري قبلها نَفِدا

ويح عيني ساء ما نظرتْ ... ويح قلبي ساء ما اعتقدا

ليت عيني قبل نظرتها ... كُحِلَتْ أجفانُها رمدا

فإذا مرَّ الوعيد به ... كاد يُفنى روحه كمدا

وإذا مرَّ الوُعود به ... شدَّ منه القلب والعضدا

عن البوسنة يقول قائلهم

شعر / محمد عبد الجواد

تـــرحَّمـــوا وزفيـــر الغـــوث يطـــرِّدُ
وهـــزهـم شجنٌ من فـــرط مـــا وجـــدوا
يقـــول قـــائلهم: أعيـــركم أذني
كمـــا يعيـــر غنيُّ الحي مـــا يَعـــدُ
على الأرائك تلقـــانـــا مصـــائبكم
فيـــرقَأ الـــدمع والأجفـــانُ تبتـــردُ
نصبٌ كأسًـــا لـــدىٰ «المـــذياع» ينعشنـــا
فننتشي وبقـــايـــا الكأس تـــرتعـــدُ
بأي حـــرفٍ أســـوق اليـــوم معـــذرتي
والحـــرفُ يهجـــرني والعـــذر لا يـــردُ
آه! ولـــو تنفع الآهـــات مـــا بَخلتْ
خـــواطَـــري كلُّهـــا والـــروحُ والجســـدُ
يـــا أهل بـــوسنـــةَ لسنـــا عنـــد ظنكمُ
نحن الـــذين بـــداء الـــذل ننفـــردُ
نحن الـــذين رنين اللفظ يُسكـــرنـــا
والقفـــر يخـــدعنـــا والـــزور والـــزبـــدُ
نحن الـــذين جبـــال الصمت تحســـدنـــا
والثلج يغبطنـــا والمـــاء والـــبـــردُ

نحن الـــذين بـــريق الـــزيف يخطفنـــا
والعين تـــرمـــد حين الضـــوءُ يحتشـــدُ
نحن الـــذين كـــؤوس الصبـــر تعـــرفنـــا
نطـــوي الليـــاليَ لا همٌّ ولا نكـــدُ
نحن الـــذين حـــريق الأيك يُلهمنـــا
لنـــا بكل هشيمٍ طـــائرٌ غـــردُ
يـــا مسلمي بـــوسنـــة لا تطلبـــوا مـــددا
لا يُـــرْتجىٰ أبـــدًا من معـــدمٍ مـــددُ
لا تنحنـــوا إخـــوتي إلا لبـــارئكمْ
وهل أفـــاد عبيـــد «الـــلات» أنْ سجـــدوا؟
كـــالطـــود كـــونـــوا فـــلا يشغلكمُ عبثٌ
عنـــد السفـــوح ولا يعنيكمُ حســـدُ
كـــالشمس تنشـــر من عليـــائهـــا دُرَرًا
على الخـــلائق إلا من بـــه رمـــدُ
كـــالنَّســـر حلّق في الأجـــواء مطَّلعًـــا
على البـــرايـــا إذا راحـــوا . . إذا وردوا
كـــالفجـــر يـــوقظ أطيـــارًا مُغـــرِّدةً
والليل يسحب أثـــوابًـــا ويبتعـــدُ
كـــالنبت ينمـــو على تلٍّ بمقْفـــرة
الغصَن عـــدَّتُـــهُ والســـاقُ والـــوتـــدُ
كـــونـــوا كـــريحٍ على الأشـــواك عـــاصفـــة
تَجتثُّ شـأفَتهـــا تفنىٰ ولا تلـــدُ
كـــالنَّـــار تلفح وجـــه الظلم منكفئًـــا
لا يـــرفعُ الـــرأس والأحشـــاءُ تتَّقـــدُ
كـــونـــوا كطفلٍ رُبـــا الأقصىٰ تُعـــانقـــهُ
والأفقُ يـــرقبـــه والكـــون والأمـــدُ!